الاستيطان في حوض البليخ خلال عصور ما قبل التاريخ

الدكتور عمار عبد الرحمن

قسم التاريخ

جامعة دمشق

الاستيطان في حوض البليخ خلال عصور ما قبل التاريخ

الدكتور عمار عبد الرحمن

قسم التاريخ

جامعة دمشق

كانت الأنهار صديقة الإنسان ومبتغاه منذ العصور القديمة، وسعى دائماً أن يكون بقربها لتأمين الماء اللازم لاستخداماته الخاصة، وفي سقاية زرعه وحيواناته. لهذا ركز العلماء اهتمامهم لسبر أغوار مناطق الأنهار وأحواضها للكشف عن الاستيطان الموجود فيها. حيث حظي نهر البليخ بأعمال تحرٍ واستكشاف آثاري أسفرت عن تحديد العديد من المواقع الأثرية من مختلف العصور التاريخية. في بحثنا هذا سنقوم باستعراض أهم المواقع الأثرية من أقصى الشمال بدءاً من دخول نهر البليخ إلى الأراضي السورية حتى نهايته عند التقائه بنهر الفرات (الشكل رقم ١). ثم سيتم على ضوء النتائج وضع منطقة البليخ على الخارطة الآثارية ومدى أهميتها الحضارية. ونبدأ هنا باستعراض نهر البليخ وذكره في العصور التاريخية.

ينبع نهر البليخ من مرتفعات أورفه وحران في تركيا، وتغذيه عدة ينابيع أغزرها عين الذهبانية(١). وبعد دخوله إلى الأراضي السورية بالقرب من تل أبيض يرفده بعد نحو ١٢ كم تجمع لينابيع أخرى تشكل البليخ المعروف. يعد هذا النهر من الأنهر الصغيرة، إذ يبلغ متوسط عرضه ٦م، ومعدل تدفقه ٥٠م٣/ثا، ويرتفع هذا المعدل في فصل الأمطار إلى ١٢٠م٣/ثا.

تصب في البليخ عدة روافد سيلية، أهمها سيل وادي الحمار، وبتأثير توزع الأمطار يكوِّن وادي البليخ في الشمال منطقة زراعية خصبة[٢]. في حين أن واديه في الجنوب (البليخ الأسفل) يعتمد على الزراعة السيحية بسبب انخفاض نسبة هطول الأمطار هناك. وقد أدى هذا إلى اقتصار النشاط الحياتي الرئيس في الوادي الأسفل على الحيوانات[٣]. تنمو أشجار الحور والصفصاف، على ضفاف نهر البليخ، فضلاً على الأدغال القصيرة التي تنمو جرّاء فيض النهر. وقد هيأ توفر القصب والأخشاب مادة أولية لبناء البيوت وتجهيزها. يمتد وادي البليخ بين خطي الأمطار ٢٠٠مم، و٣٠٠مم. حيث يتراوح المعدل الوسطي السنوي للأمطار بين ١٨٣مم في الرقة و٢٧٥مم[٤] في تل أبيض، ويفوق معدل التبخر هنا معدل الأمطار النازلة بدرجة كبيرة حتى في السنوات الرطبة.

تختلف الآراء حول تسمية هذا النهر، فمنهم من يقول أنها ليست تسمية عربية، ولكن يقال: بَلِخَ إذا تكبر[٥]، وقد ذُكر الاسم أيضاً بصيغة الجمع "الأبالخ"، قال الأخطل:

وتعرضت لك الأبالخ، بعدما قطعت لأبرم خلة وأصارا[٦].

وإذا عدنا إلى النصوص القديمة نجد أن اسم النهر يرد بنفس الصيغة الحالية، فقد كتب اسم النهر balih في نصوص العصر البابلي مقطعياً با-لِ-إخba-li-ih، وكذلك ba-li-ha-a، وكتب أيضاً بالعلامات الرمزية (d)KAS.KUR التي تقرأ أيضاً[٧]: (d)KAS-KAL-KUR . استمر هذا الاسم في نصوص العصر الآشوري الحديث بصيغة (id)ba-li-hi، idpa-li-hi وكُتب بالعلامات الرمزية .KAL-KUR-KAS، ومن الجدير بالذكر أن مدينة قديمة حملت اسم بليخ (Balihu)، ويعتقد أنها كانت بين نهري الخابور والفرات في منطقة حرّان بحسب أحد نقوش الأمير جوديا، حاكم دويلة لجش في أواخر الألف الثالث ق.م.

استيطان عصور ما قبل التاريخ في حوض البليخ:

جذب نهر البليخ منذ عصور ما قبل التاريخ الراغبين في الاستيطان، ويمكن إدراك ذلك من خلال استعراض هذه المواقع بدءاً من أعلى المجرى باتجاه نهر الفرات، وأول هذه المواقع موقع تل أسود.

تل أسود:

يقع تل أسود على الضفة الشرقية لفرع من نهر البليخ يدعى نهر التركمان (الموقع رقم ٥٨ في الشكل رقم ١). ويبعد ٨٠كم إلى الشمال من الرقة، و٢٠ كم إلى الجنوب من تل أبيض. يتألف هذا التل من مرتفعين، ويصل ارتفاعه إلى ٢٠ م عن الأرض المجاورة له. تصل مساحة التل إلى ٤٠٠× ٣٠٠م =١٢٠٠٠ متر مربع. أثار هذا التل اهتمام المنقبين منذ النصف الأول من القرن العشرين، فقد قام م. مالوان M.E.L. Mallwan عام ١٩٣٨م ببعض الأسبار التي دلت على وجود سويات حلفية. لكنه لم يستطلع السويات الأخرى الأقدم على الرغم من أنه أشار إلى وجودها. وقد تم تأكيد هذا الأمر من خلال أسبار جديدة قام بها ج. كوفان J. Cauvin عام ١٩٧٠م. حيث نُفذ هذا السبر على شكل خندق بعرض مترين متدرج من القمة وحتى الأسفل، ووصل عدد درجاته إلى ثمانية. تعود السويات الأثرية من ١-٦ إلى عصر حلف[٨]، وكشف فيها عن أدوات حجرية، ودمى وحلي وعظام حيوانية، والملاحظ هو عدم وجود فخار. هذا الأمر يمكن تعليله في هذه السويات الحلفية بسبب ضيق المساحة المنقبة. لكن ما عثر عليه من بقايا معمارية كان بيوتاً دائرية الشكل (ثولوي)، وكانت تشيد من اللبن المشوي، وقياساته ثابتة وهي: ٣٣×٣٣×١٠ سم. واستعملت جدران قليلة السماكة من اللبن مطلية بالكلس الأبيض للفصل بين حجرات البيت الواحد. وعثر في داخل أحد البيوت على قاعدتين من الطين لتمثال، وكذلك على جمجمة لثور وحشي مغروزة في القاعدة، ولعل هذا يشير إلى وظيفة دينية لهذا البناء. يمكن مقارنة

هذا مع ما اكتشف في مواقع أخرى مثل المريبط في سورية، وشاتل هويوك، في الأناضول، وهما من المواقع التي قدمت استعمالاً مماثلاً لجمجمة الثور الوحشي. وقد هُجر الموقع بعد استيطان حلف وانتقلت السكنى على ما يبدو إلى تل سخلان المقابل لتل أسود.

أما السويات الأقدم المتمثلة بالسويتين ٧-٨ التي تتسم بعدم وجود بقايا معمارية، فقد احتوت على كميات كبيرة من الفخار الذي صنفه كوفان على الشكل التالي:

١- الصنف الأول الذي يمثل نصف الفخار المكتشف يقسم إلى مجموعتين: الأولى: عبارة عن آنية لامعة بدون زخارف بعضها من عجينة قاسية متجانسة حمراء وذات بطن دائري وقعر مسطح وبدون شفة، أما المجموعة الثانية فيتميز فخارها باستعمال القش في العجينة ذات اللون الأسود، وتتشابه في شكلها مع أواني المجموعة السابقة لكنها أكبر حجماً وأدق سماكة.

٢- أما الصنف الآخر من الفخار فهو غير لماع وذو سماكة قليلة ولا تزيد عن ١-١,٥ سم[٩].

بالمقارنة مع المواقع الأخرى من الناحية الزمنية فإن تل أسود أول موقع في المنطقة أنتج فيه الفخار. إذ لم يكتشف حتى الآن موقع من العصر الحجري الحديث قدم فخاراً في زمن متقدم على زمن تل أسود. فما اكتشف من فخار في مواقع العصر الحجري الحديث، مثل تل مريبط وأبو هريرة وجرف الأحمر، لا يتعدى المحاولات الأولية. أما في تل أسود فقد كانت هناك عملية تصنيع رائدة للفخار وتعميمه في الاستعمال اليومي. وهناك افتراضات تجعل من تل أسود المهد الأول لصناعة الفخار. في حين هناك من يعتبر أن هذا الموقع كان بمثابة مركز رئيس لإنتاج الفخار وأنه قام بتزويد المواقع الأخرى به. ومهما يكن مدى الصواب في هذه الافتراضات فإن تل أسود يعتبر من أول المواقع التي صنّعت واستعملت الفخار بشكل مكثف.

لم يكن الفخار المادة الوحيدة المستعملة بكثافة في تل أسود. فقد كان للأدوات الصوانية دور فعّال أيضاً في الاستعمال. إذ عُثر على رؤوس السهام من نمط صناعة جبيل، ومخارز ونصال، وكذلك أدوات هلالية ومناجل (الشكل ٢). واستعمل الأوبسيديان في تصنيع بعض النصال. وعثر على بلطات مصنعة من الحجر الأخضر، وهي مشابهة لما صنع في تل مريبط. وقد اختصت مواقع الفرات السوري بهذا التقليد، بينما استعمل الصوان فقط لتصنيع البلطات والفؤوس في الوسط أو الجنوب. كما كشف عن صحون وزبادي مصنوعة من حجر الألباستر[١٠].

تل صبي أبيض:

يقع على بعد ٦٥ كم شمال الرقة على الضفة اليسرى لنهر البليخ (الشكل ١ الموقع رقم ٦١). يعود تاريخ الموقع إلى العصر الحجري الحديث، بين الألف الثامن والألف السادس قبل الميلاد. يتكون الموقع من أربعة تلال صغيرة تم التنقيب في اثنين منهما هما صبي أبيضI، وصبي أبيض II[١١]. الثاني أقدم من الأول ويبعد عنه نحو ١٠٠ متر.

قامت بأعمال التنقيب الآثاري في تل صبي أبيض بعثة هولندية من متحف الآثار الوطني الهولندي بإدارة ب. م . ج. ج أكرمنس P.M.G.G Akkermence منذ عام ١٩٨٦ م.

إن صبي أبيض II مرتفع صغير أبعاده ١٢٣×٧٦م ولا يزيد ارتفاعه عن ٤,٥ م (الشكل ٣)، وشملت التنقيبات ما مساحته ٥٤٠ م وحدد تاريخ الاستيطان فيه من مرحلة ما قبل الفخار B (PPNB) من العصر الحجري الحديث بين ٧٥٠٠ وحتى ٦٨٥٠ق.م (تاريخ معاير). وتقارب التقسيم المحلي الذي وضعه المنقب أكرمنس الخاص بمنطقة البليخ وأطلق عليه دوري البليخ الأول هو البليخ C (٧٧٥٠-٧٥٠٠ ق.م) والبليخ D (٧٥٠٠-٦٨٥٠ ق.م)[١٢].

تم تحديد ثماني سويات في صبي أبيض II تعود الاثنتان الأقدم منها (٨ و٧) إلى دور البليخ الأول C. أما السويات الست الباقية (٦-١) فتعود إلى دور البليخ الأول D. لم يكشف عن عمارة واضحة في السويات الأقدم بسبب ضيق المساحة المنقبة. وتمثل ما كشف عنه بجدران وأجزاء من غرف مستطيلة الشكل وبعض المواقد. بينما كانت عمارة السويات المتأخرة أكثر وضوحاً وتظهر تشابهاً فيما بينها. وقد كشف في السوية الثالثة عن ثلاثة عشر بناءً. مخططات هذه الأبنية مستطيلة الشكل وكان تشييدها في مراحل متعاقبة من السوية الثالثة. تحمل عمارة هذه الأبنية الخصائص المميزة لعمارة ما قبل التأريخ B من العصر الحجري الحديث، التي تعتمد الجدران المستقيمة والزوايا القائمة وذلك في أول انتشارها في المشرق العربي القديم. فالبناء رقم II على سبيل المثال يغطي ما مساحته ٦٥×١٠م، ويضم إحدى عشرة غرفة، يتراوح طول كل منها ما بين ١,٥ و٢,٥م. الجدران مشيدة باللبن المرصوص بلون برتقالي-بني، وقد بقيت محفوظة إلى ارتفاع ٥٠ سم. معدل عرضها ٣٠- ٣٥ سم. المخطط العام للبناء II غير منتظم وتحتشد فيه الغرف إلى جانب بعضها. على الأغلب خصصت الحجر الصغيرة للتخزين. ويلاحظ وجود غرفتين فقط بمساحة كبيرة (٩-١٠) م٢ ، وكانتا مخصصتين للمعيشة على ما يرجح. لم تكن هناك مداخل بين بعض الغرف، وهذا يطرح احتمال التنقل عن طريق فتحات في الجدران أو عبر السطح. وعثر على المواقد في المساحات المفتوحة.

وجدت الأدوات الصوانية في الموقع بأعداد قليلة، ولم يعثر على الكثير من رؤوس السهام، وهذا يشير إلى قلة الاعتماد على الصيد، وهذا ما أكدته أيضاً دراسة البقايا الحيوانية. فقد اتضح أن الماعز هو الحيوان الأكثر استهلاكاً في صبي أبيض، وبلغت نسبة استهلاكه ٩٠% من مجموع الحيوانات المستهلكة، وهذا يعني تفضيل سكان الموقع القدماء تربية الماعز على الصيد بشكل عام[١٣]. وعثر على بعض أجزاء من مناجل، وكذلك مكاشط مشذبة من طرف واحد وأحياناً من طرفين ونوى سفينية الشكل

ونصال. أمام قلة عدد الأدوات الصوانية في الموقع نجد كثرة في الأدوات المصنعة من الأوبسيديان[١٤] وأغلبها من النصال والشظايا. وفضلاً على الأدوات عثر على لقى فنية، ربما كان لبعضها صلة بالمعتقدات الدينية. من هذه اللقى دمى حجرية إحداها لأنثى بوضعية الجلوس ولها ثديان كبيران، ورأسها مفقود[١٥]. وهناك دمية أخرى، عبارة عن رأس من الحجر الكلسي يلاحظ فيه تجويفان للعينين. كما يوجد ثقب في أسفل الرأس (عند قاعدة الرقبة)، ربما لغاية تثبيتها على قاعدة أو على جسم. كما عُثر على بعض الدمى الطينية الحيوانية التي تمثل في الغالب ثيراناً. ومن المكتشفات المهمة في هذا التل جسيمات طينية صغيرة بأشكال كروية ومخروطية وصل عددها إلى ١٩٧. هذه الجسيمات من النوع الذي أطلقت عليه تسمية "الرموز" tokens، واعتبر وسيلة للحساب مهدت لابتكار الكتابة فيما بعد[١٦].

إن هذه الخصائص التي تميز بها صبي أبيض II وجدت انتشاراً واسعاً في مواقع معاصرة في منطقة البليخ والفرات وفي الأناضول. من هذه المواقع: تل أسود، تل الدامشلية، أبو هريرة، السوية الأقدم في تل بقرص على الفرات.

يعد تل صبي أبيض I أكبر بقليل من سابقه، شكله شبه دائري، أبعاده ٢٥٠×٢٠٠م (الشكل ٤). يعود تاريخ الاستيطان في هذا التل إلى ٥٠٠٠ ق.م (غير معاير). وهذا زمن نهاية العصر الحجري الحديث وبداية ظهور ثقافة حلف. السويات الأقدم في التل (١١ إلى ٧) تؤرخ من ٥٧٠٠-٥٢٠٠ ق.م، في حين أن السويات المتأخرة (٦-١) تؤرخ من ٥٢٠٠-٥٠٠٠ق.م، وهي مرحلة ما قبل حلف المبكر.

لم تكشف عن السويات الأقدم إلا في بعض مجسات السبر، وقد دلت البقايا المعمارية منها على مخططات مستطيلة الشكل للأبنية. أما السويات الأحدث (من ٦-١) فقد كانت أكثر تكاملاً ووضوحاً. ذلك أن مساحة التنقيب فيها بلغت ٨٠٠ م مربع. وأوضح بقايا معمارية في هذه السويات جاءت من السوية السادسة. حيث كشف عن آثار

لبيوت مستطيلة الشكل ويتألف أغلبها من غرف عديدة، يصل عددها أحياناً إلى ١٤ غرفة صغيرة[١٧]، وتتراوح مساحة البيت الواحد بين ٩٠ و١٢٠ م مربع، وأبنية البيوت ملاصقة لبعضها، ويتألف البيت الواحد من ثلاثة أجنحة، يضم كل منها غرفاً صغيرة تتراوح مساحاتها بين ٣ و٥ م مربع. احتفظت جدران القرية بارتفاعها لغاية ١,٤ م، مما أتاح الفرصة لتكوين تصور جيد عن القرية (الشكل ٥). ولقد أثار وجود آثار الرماد والحريق في أرجاء المستوطنة التساؤل عما إذا كان ذلك نتيجة لحريق عارض أو لهجوم معادٍ. وإذا كان من غير الممكن تحديد السبب على وجه التأكيد فإنه من الواضح أن البيوت المخربة نتيجة الحريق قد أعيد بناؤها بسرعة، وتوسعت رقعة السكن، مما لا يوحي بنهاية عنيفة.

أهم اللقى في السوية السادسة الفخار الذي وجد في مختلف أرجاء القرية. هذا الفخار مزين بالزخارف وحل محل الفخار الخشن القديم، ويشابه فخار سامراء الذي انتشر في شمالي بلاد الرافدين ووسطها[١٨]. وقد وجد الكثير من الأدوات الحجرية الصوانية فضلاً عن دمى طينية وحيوانية، وكذلك المئات من الكتل الطينية المختومة التي استعملت سدادات لإحكام غلق الأوعية الفخارية والسلال.

شهدت هذه السوية استهلاكاً كثيفاً للحيوانات المدجنة مثل الماعز والغنم وبنسبة أقل من الخنزير. وهذا يؤكد اعتماد السكان على الرعي وزراعة المزروعات في مقابل انحسار ممارسة الصيد. ويأتي الدليل على ذلك من عدم وجود رؤوس سهام بأعداد كبيرة، وهي الأدوات الرئيسة المستعملة في الصيد. ولم تكتشف قبور تكفي لتكوين فكرة عن شعائر الدفن في صبي أبيض I. فالقبر عبارة عن حفرة تحت أرضية عمقها ٢٢٠ سم وقطرها ٤٥ سم. وجد هيكل الطفل في هذا القبر ممدداً على جنبه الأيمن والرجلان مضمومتان بوضعية الجنين.

في السوية الثالثة انتقل الموقع إلى ثقافة حلف. بيوت هذه السوية كبيرة ذات مخططات مستطيلة الشكل، منها ما احتوى على ٢٠ غرفة صغيرة. وقد وجدت دعامات ودكات للعبادة في بعض الغرف[١٩]. بعض البيوت ذات الشكل المستطيل محاطة بسلسلة من أبنية دائرية أو مستطيلة الشكل، لكنها منفصلة عن البيوت. ربما كانت هذه التشكيلات البنائية المدورة، التي يبلغ قطر كل منها ٣ م، قد استعملت مخازناً للحبوب. لوحظت في هذه السوية أيضاً علامات حرق على الجدران والأرضيات، لكنها لم تكن بالشدة التي خلفها حريق السوية السادسة. ودلت الدراسة المتفحصة على أن الموقع لم يُهجر، ولم تحصل عمليات إعادة بناء في ضوء هذا استُخلص أن ذلك الحرق كان نتيجة لعملية متعمدة، الغاية منها شي الجص المستعمل في إكساء الجدران والأرضيات لزيادة صلابته ومقاومته عوامل الطبيعة، مما كان يساعد على حفظ الحبوب الموجودة داخل المخازن وحمايتها من الرطوبة والعفن. من أهم مخلفات ثقافة حلف في هذه السوية الأختام المسطحة، وهي من أقدم نماذج الأختام المسطحة التي استعملت لغايات إدارية في المشرق العربي القديم[٢٠]. وكان قد عثر على أختام مشابهة مبكرة من موقع الأربجية في شمال- شرق الموصل في العراق.

هُجر موقع تل صبي أبيض في حوالي ٥٠٠٠ ق.م، في وقت ازداد فيه انتشار مواقع عصر حلف المتأخرة في مناطق الفرات والبليخ، وقد اشتركت تلك المواقع جميعها بإنتاج فخار ملون وجميل، غدا الميزة الرئيسة لثقافة ذلك العصر. ومن الجدير بالذكر أن هناك أهمية خاصة لموقع صبي أبيض I تأتي من كونه استوطِن من حوالي ٧٥٠٠ ق.م حتى ٥٠٠٠ ق.م، وهي المرحلة اللاحقة شهدت تناقصاً في مواقع العصر الحجري الحديث المتأخرة نتيجة لتردي الظروف المناخية في المنطقة.

خربة الشنف:

لا تبعد خربة الشنف عن صبي أبيض سوى ٢كم (الشكل ١ الموقع رقم ٦٢)، وهي خربة صغيرة لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض. هذا القرب من الموقعين شجع البعثة الآثارية الهولندية العاملة في موقع صبي أبيض على إجراء تحريات أولية في خربة الشنف. وكانت نتائج تلك التحريات ملفتة للانتباه، إذ ظهرت بقايا فخارية تعود إلى عصر حلف، أي أنه معاصر لصبي أبيض، نتيجة لهذا قامت البعثة الهولندية ببعض التنقيبات السريعة في الموقع.

كشفت التنقيبات عن بنيتين تضمان تشكيلات بنائية دائرية الشكل. يبلغ قطر بعض هذه الأبنية نحو ٤ م. ومن المرجح أن هذه الأبنية كانت لغاية التخزين[٢١]، ويقدر أن كل بيت من البيتين المكتشفين كان كافياً لاستيعاب ١٠-١٥ فرداً.

إن صغر حجم الخربة من عصر حلف له صلة بقربه من صبي أبيض. ذلك أن البقايا الحيوانية التي وجدت بكثافة في الخربة تدل على تخصص بتربية الحيوانات مثل الغنم والماعز والخنزير. وهذا يعني أن التوسع في مواقع الاستيطان الرئيسة استدعى خروج بعض الفئات المتخصصة في أحد المجالات المعيشية، سواء كانت زراعية أم رعوية للعيش عند مزاولة عملها، وهذا ما حدث في خربة الشنف. وقد دلت التحاليل المخبرية في هذا الموقع أن الاستيطان لم يستمر أكثر من خمسين سنة[٢٢].يقودنا هذا للاستنتاج أن الخربة كانت محلاً لإقامة محدودة، وعند انتفاء الغرض من هذه الإقامة عاد الأفراد إلى سكنهم الأساسي في صبي أبيض، أو اختاروا مكاناً آخر.

الدامشلية:

يقع على الضفة الغربية لنهر البليخ (الشكل ١ الموقع رقم ٦٣)، وتبلغ أبعاده نحو ١٨٠×١٧٠م (الشكل ٦). يرجح أن مساحة التل كانت أوسع، لكنها تناقصت بسبب

أعمال الحفر لغرض الري التي يقوم بها المزارعون المحليون، وخصوصاً في الجهة الجنوبية- الشرقية. يمر نهر البليخ بمحاذاة التل في الجهة الشمالية.

عملت في تل الدامشلية بعثة هولندية من جامعة أمستردام بإدارة فان لون وكان أول موسم تنقيب في عام ١٩٨٤ م. تركزت أعمال التنقيب في جنوب-غربي التل، وحفرت خنادق سبر اختبارية يصل طولها إلى ٢٠ م في ثلاثة مواضع. بينت هذه التحريات وجود ثلاث طبقات في الموقع أقدمها تعود إلى العصر الحجري الحديث، تليها سوية من عصر الحديد، وأخيراً توجد طبقة بسيطة من الفترة البارثية-الرومانية.

كانت مساحة الاستيطان في العصر الحجري الحديث تقارب ١٥٠٠ متر مربع، وقد سويت أرضية الموقع ثم بنيت عليها مصطبة من قطع كبيرة من اللبن للبناء فوقها. هذه المصطبة مشيدة بلبن قياسه ٦٠×٤٠ سم. اشتملت هذه السوية على سبع طبقات بنائية وجدت أقدمها حول المرتفع (أ+ج+ د). في حين كانت أحدثها قد امتدت فقط في المنطقة ب[٢٣]. ثم هُجر الموقع بعد ذلك ليعاد استيطانه في عصر حلف المبكر. هذا الاستيطان كان محدوداً في المنطقة د فقط ووجد في منطقة مساحتها ٣٠×٢٠ م.

كانت عمارة العصر الحجري الحديث في سوياتها الأقدم، تتألف من أبنية متفرقة بمخططات مستطيلة الشكل. ضمت هذه الأبنية فراغات صغيرة معدل عرضها ٢-٣م، لم تظهر فيها أدلة تشير إلى استيطان سكني مثل المواقد وغيرها. لذلك يرجح أنها استعملت لأغراض التخزين، لاسيما أنه وجدت مصاطب على أرضياتها لحفظ الحبوب بعيداً عن الرطوبة[٢٤]. فيما عدا هذا لم تُلحظ بقايا معمارية كثيرة. لكن عُثر على الكثير من اللقى الأثرية، خصوصاً في الطبقات المتأخرة التي شهدت أعمال ترميم الأبنية القديمة. فقد عثر على نوى صوانية كثيرة ورؤوس سهام من نمط صناعة جبيل، ونصال مثاقب وكذلك مناجل. وعثر في الموقع أيضاً على صحون وطاسات وأحجار رحى من البازلت وآنية من الرخام لها أربعة أرجل[٢٥].

حددت عمليات التحري في الدامشلية بوضوح معالم مستوطنة صغيرة من العصر الحجري الحديث (من بداية الألف السابع ق.م) لا تتجاوز مساحتها ٤٠٠ م مربع، ويقدر عدد سكانها بثلاثين- أربعين شخصاً. هذا النمط الصغير من الاستيطان كان مألوفاً في حوض البليخ، وقد وجد مثله في تل أسود[٢٦]، الذي ضم فخاراً مماثلاً لفخار الدامشلية. من خلال دراسة البقايا النباتية تبين أن سكان الدامشلية القدماء استهلكوا القمح، والشعير والعدس بشكل أساسي. ولم تكن مرحلة استيطان عصر حلف المبكر في القطاع (د) واضحة إلا من خلال الفخار. إذ لم يعثر على عمارة سكنية أو جرار تخزين تدل على استيطان دائم. ولهذا يُعتقد أن تل الدمشلية كان في تلك المرحلة عبارة عن مقر مؤقت للقيام بنشاطات محددة. وتجدر الإشارة إلى أن فخار هذه المرحلة مشابه لفخار عصر حلف من موقع الأربجية[٢٧] في شمالي العراق.

حمام التركمان:

يلي موقع خربة الشنف على الضفة اليمنى لنهر البليخ (الشكل ١ الموقع رقم ٦٤) . عملت في الموقع بعثة هولندية من جامعة أمستردام بين عامي ١٩٨٢-١٩٨٦م وذلك تحت إدارة م. فان لون M.Van Loon . يأخذ التل شكلاً شبه دائري (الشكل ٧)، وقد كشفت التنقيبات فيه عن استيطان مكثف من عصر العبيد حتى العصر البرونزي المتأخر.

في سوية عصر العبيد وجدت بعض الغرف والكثير من الرماد الذي يدل على تعرض الموقع للحريق. ومن أهم مكتشفات طبقة عبيد مجسمات فخارية لبيوت مصغرة تماثل مجسمات تم الكشف عنها في مواقع مثل تبه غورا في شمالي العراق وساكجاغوزو في جنوبي الأناضول[٢٨]. كما ظهرت بقايا معمارية من أواخر العصر الحجري- النحاسي تضمنت زخارف ولقى فخارية كثيرة. وقد نسبت هذه البقايا، بحسب طرازها وأسلوبها، إلى عصر أوروك.

تل مفيش:

يبعد عن النهر نحو ١٠ كم إلى الغرب (الشكل ١ الموقع رقم ٦٥). يبلغ ارتفاع هذا التل ١٤م[٢٩]، وقد كشفت الدراسات السبرية التي قام بها ماكس مالوان عن طريق حفر مجسات عميقة عن استيطان من عصر عبيد، ودل عليه الفخار المزخرف باللونين الأسود والأحمر[٣٠]. تشمل البقايا المعمارية غرفاً صغيرة تبلغ أبعادها ٢٣٠×١٥٠م. هذا الاستيطان منذ بداية الألف الخامس قبل الميلاد، هو استمرار لتعاقب استيطاني في وادي البليخ خاصة بعد استيطان عصر حلف، كما رأينا في موقع صبي أبيض.

تلول البغيلات:

عبارة عن مجموعة تلول قليلة الارتفاع تقع على بعد ٤ كم جنوب- شرق قرية حمام التركمان (الشكل ١ الموقع رقم ٦٩). تؤرخ بعض اللقى في تلين منهما هما I- II على العصر الحجري الحديث. حيث عُثر على رؤوس سهام مذنبة ونصال صوانية مشابهة لموقع تل صبي أبيض[٣١]. كما عُثر على بعض الكسر الفخارية البدائية الصنع.

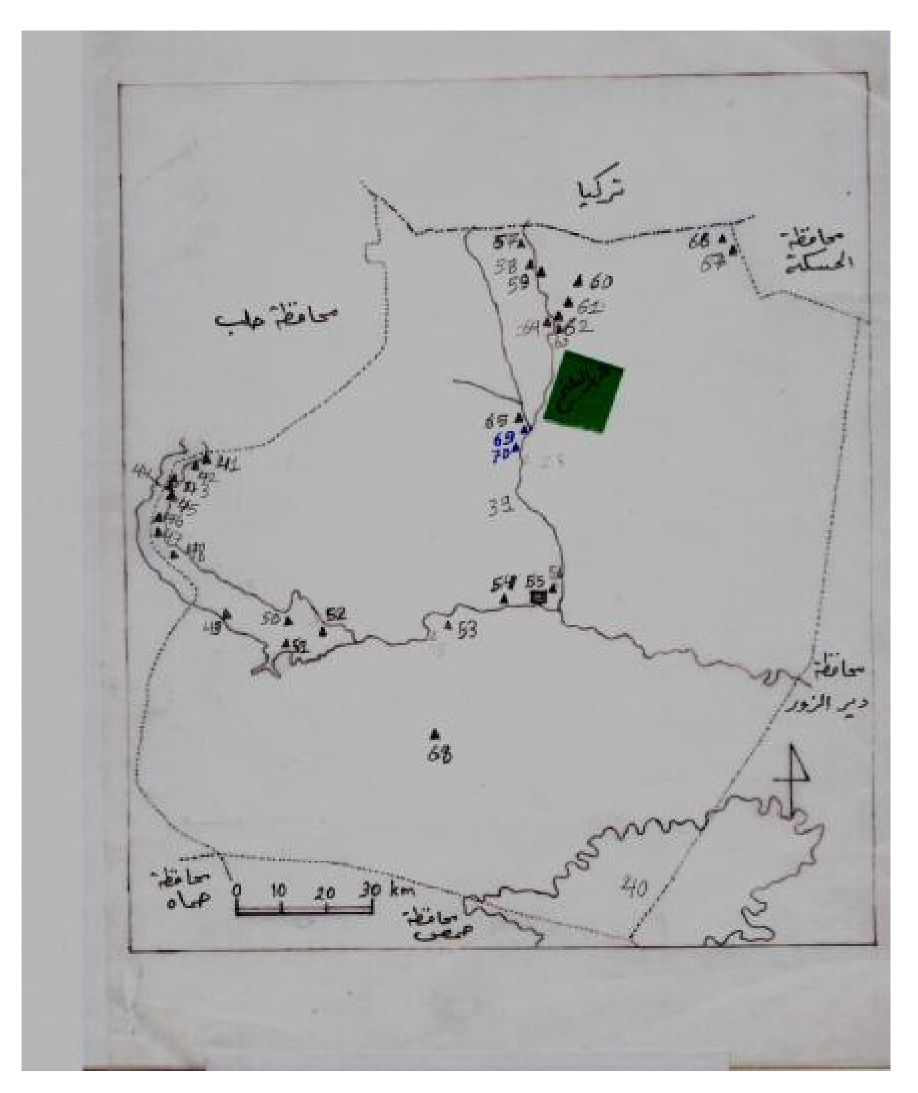
تل مفرق سلوك

هضبة صغيرة تقع على بعد ١٠ كم جنوب شرق حمام التركمان (الشكل١ الموقع رقم ٧٠). يمكن تأريخ الاستيطان في هذا التل على فترة العصر الحجري الحديث ب (PPNB)[٣٢]، وضم هذا التل رؤوس سهام من نمط جبيل المشابهة لنمط تل أبو هريرة.

تل شاهين:

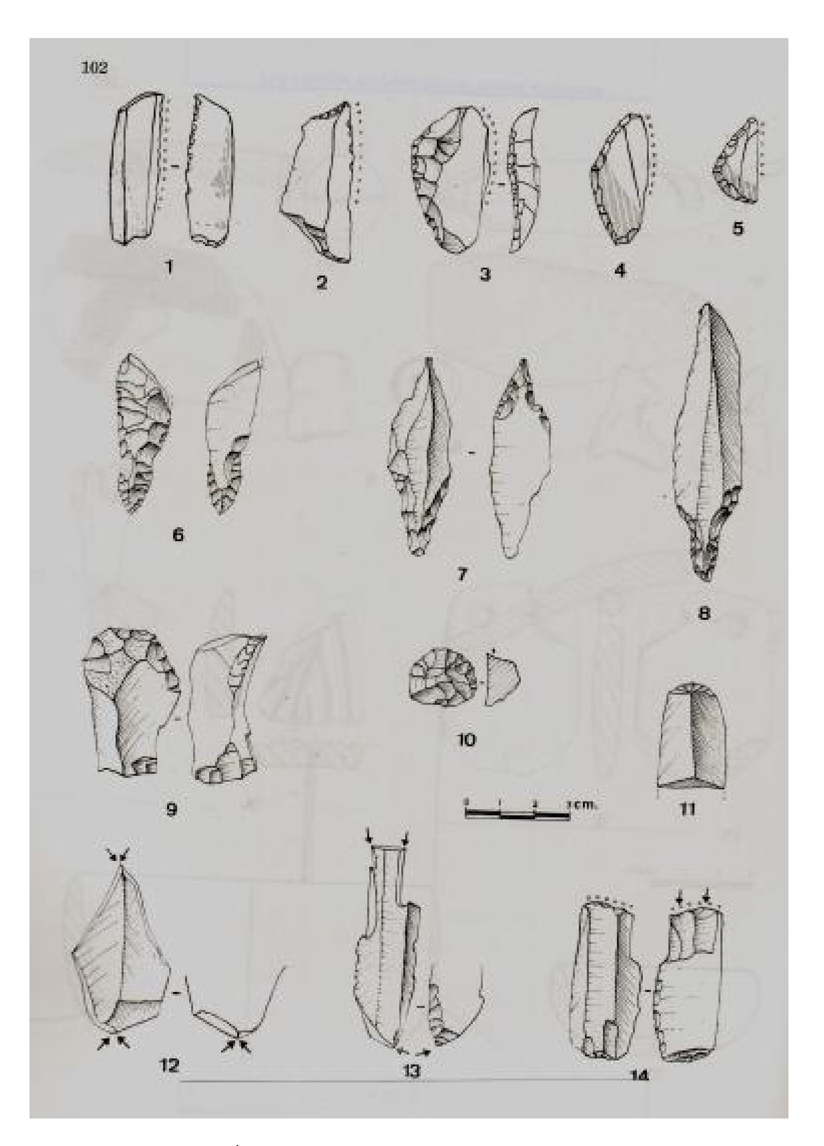
آخر التلال الذي سنتناوله من حوض البليخ، هو موقع تل شاهين على بعد ٣٢ كم شمال جسر شنينه. من خلال الفخار الموجود على سطح التل يمكن تأريخ الاستيطان إلى فترتي حلف وعبيد[٣٣].

إن ما تم استعراضه من مواقع مستكشفة في حوض البليخ قد أعطى صورة جلية عن طبيعة الاستيطان وقدمه. إذ تبين أنه يعود في أقدمه إلى العصر الحجري الحديث، حتى فترة عبيد ومن دون انقطاع. ويشكل هذا حلقة استيطان مهمة بين منطقتي الخابور والفرات وأن الاستيطان قد بدأ مع بداية الاستقرار، أي خلال العصر الحجري الحديث ولم ينقطع حتى تاريخه، مع ملاحظة عدم وجود دلائل على استيطان من العصر الحجري القديم أو الوسيط، التي كانت موجودة إلى الجنوب- الشرقي في حوضة الكوم وعلى ضفاف الفرات. وهذا يشير إلى أن منطقة البليخ لم تكن ممراً للإنسان الحجري القديم، لكنها سُكنت مع بداية الاستيطان في العصر الحجري الحديث واستمرت حتى نهايته.

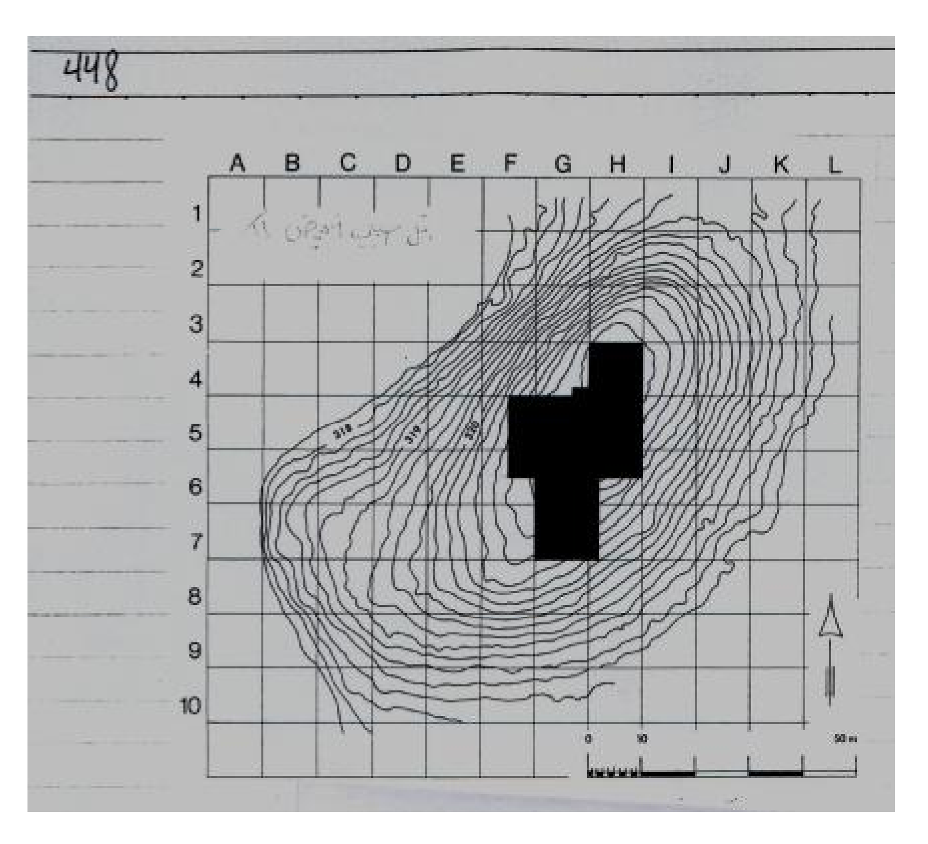


نـهر البليخ وعليه المواقع الأثرية

الشكل رقم (١)

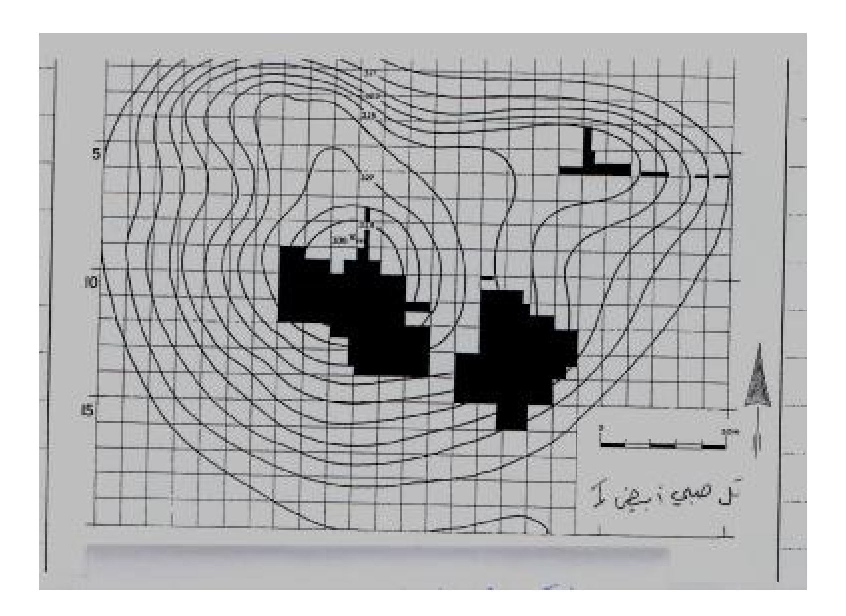


الشكل (٢): نماذج من الأدوات الصوانية في تل أسود (الجزيرة)



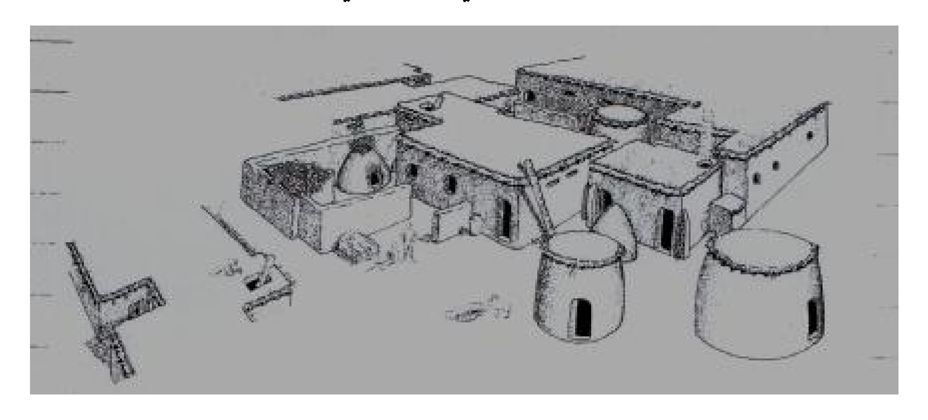
الشكل (٣)

المخطط الطبوغرافي لتل صبي أبيض II



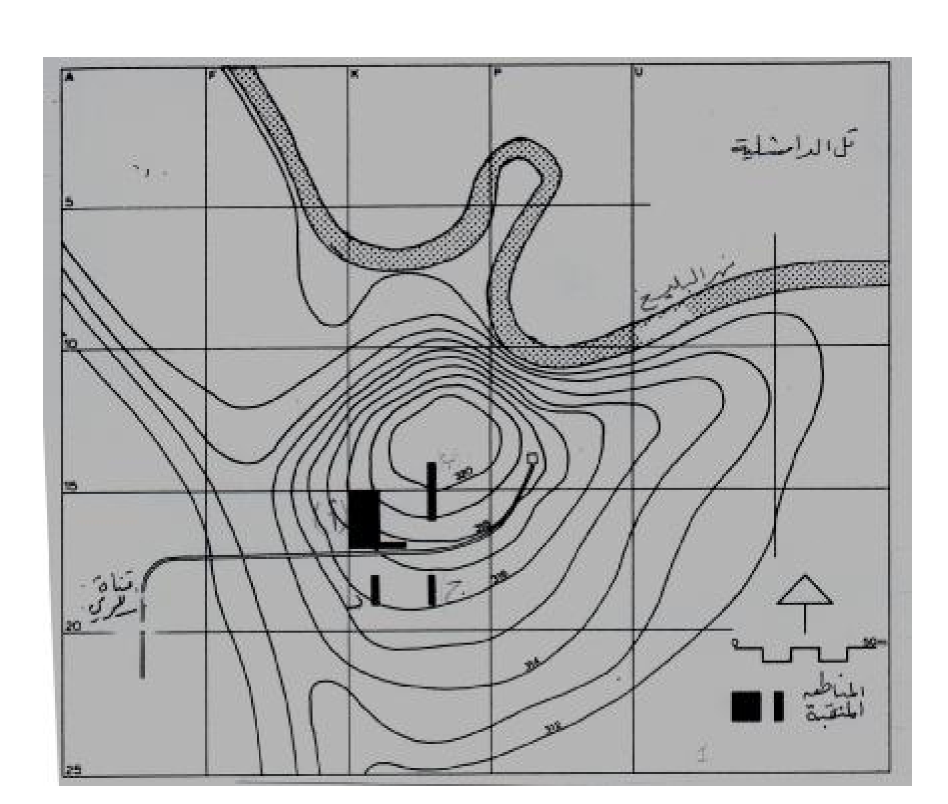
الشكل (٤)

المخطط الطبوغرافي لتل صبي أبيض I



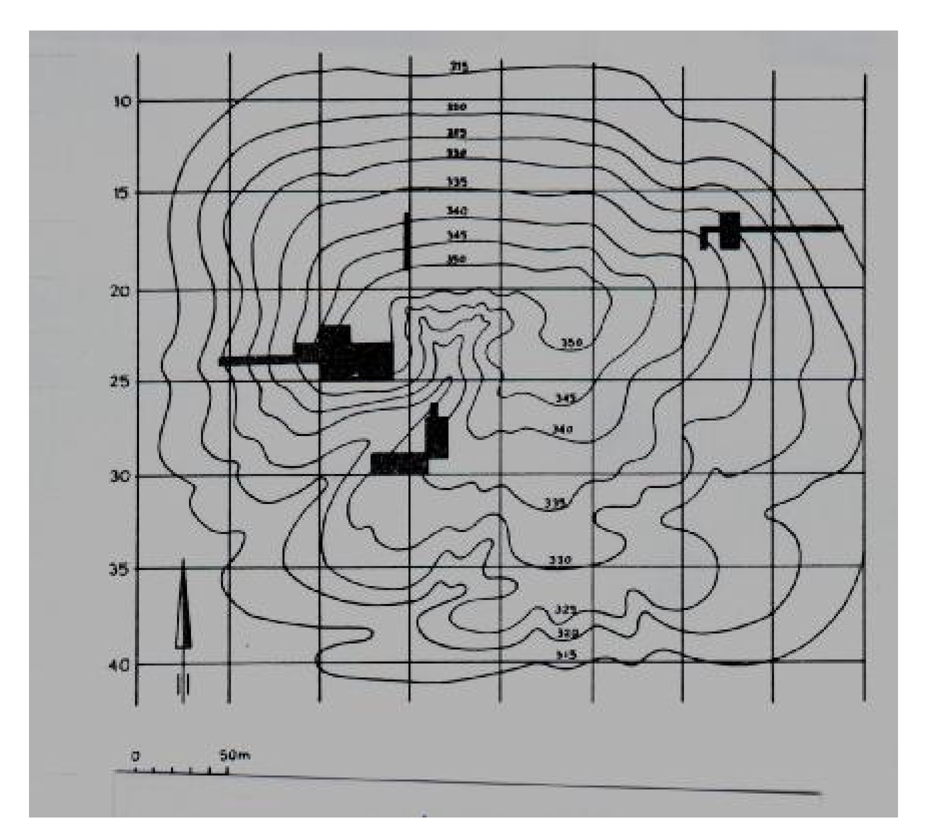
الشكل (٥)

تصوير افتراضي للقرية المحترقة في صبي أبيض



الشكل (٦)

المخطط الطبوغرافي لتل الدامشلية



الشكل (٧)

مخطط طبوغرافي لموقع حمام التركمان

الهوامش

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان** ج١، دار الإحياء العربي، مادة البليخ.

(٢) طه باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** ج١، (بغداد، ١٩٧٣م) ص.٤٤.

(3) P. Bienkowski, Dictionary 0f Ancient Near East, p.46.

(٤) بيتر أكرمنس، **التنقيبات الأثرية في تل الدامشلية**، الحوليات الأثرية العربية السورية ٣٥/٣٦ (١٩٨٦-١٩٨٧م)، ص ٢١٢.

(٥) ياقوت الحموي، مرجع سابق، مادة بلخ.

(٦) المرجع نفسه.

(7) B.Groneberg.RepGeog,vol 3,p.227

(٨) **الرقة درة الفرات**، ص.٣٤٩-٣٥٠.

(٩) عمار عبد الرحمن، **الدمى في العصر الحجري الحديث في سورية**، الملحق III، ص.٢٧.

(١٠) جاك كوفان، **سبر في تل أسود –الجزيرة السورية-**، **الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٢٢**، المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية،ـ (١٩٧٢) صص. ١٨٩-١٩١.

(11) M.Verhoeven& P.M.M.G Akkermeans, Tell SabiAbyad II The pre-pottery Neolithic B Settlement, Nederhistoesch-ArchaeologischInstitut in Istanbul, 2000, p.3.

(12) Loc.Cit, p.1

(١٣) عمار عبد الرحمن، المرجع السابق، ص.٢٥٤.

(14) M. Verhoeven and P.M.M.G Akkermence, Tell SabiAbyadIIThe Pre-Pottery Neolithic B Settlement, Nederland historisch-ArchaeologischInstitut, p.61

(١٥) عمار عبدالرحمن، المرجع السابق، ص.١٨١.

(16) E.A.Ross, Geometric Patterns on Pebbles: Early Identity Symbol, in Neolithic Revolution, edited by, Edgar Peltenberg and Alexander Wasse, Levant Supplementary Series 1, p158

(١٧) بيتر أكرمنس، **تل صبي أبيض**، المعرض السوري الأوربي، ص..٣١

(١٨) المرجع نفسه، ص.٣١-٣٣.

(19) P.M.M.G Akkermeans, Tell SabiAbyad. The Late Neolithic Settlement vol 1, Nederland HistorischInstitut in Istanbul, 1996, p.33

(٢٠) المرجع السابق، ص.١٧٦.

(٢١) بيتر أكرمنس، **المعرض السوري-** الأوربي، ص.٣١.

(٢٢) المرجع نفسه، ص.٣٢.

(٢٣) بيتر أكرمنس، **التنقيبات الأثرية في تل الدمشلية مستوطنة من العصر الحجري الحديث في وادي البليخ- سوريا الشمالية**، في الحوليات الأثرية العربية السورية مج ٣٦-٣٧ (١٩٨٩) تعريب شوقي شعث، ص.٢١٣.

(٢٤) المرجع نفسه، ص.٢١٣.

(٢٥) المرجع نفسه، ص.٢١٥.

(26) J. Cauvin, Sondage a Tell Assouad (Djezirehm Syria), 1972m AAAS 22, pp.85-88

(27) M.E.L. Mallowan and C.Rose, Excavations at Tall Arpachiyah, 1933, Iraq 2, (1935), pp.1-178

(٢٨) **الرقة درة الفرات**، مجموعة باحثين، ص.٣٤٨-٣٤٩.

(29) Anne Louise Perkins, The comparative Stratigraphy of early Mesopotamia, Chicago, 1949.

(٣٠) **الرقة درة الفرات**، المرجع السابق، ص.٣٤٩.

(٣١) سلطان محيسن، **تلال ما قبل التاريخ في وادي نهر البليخ الأدنى**، في الحوليات الأثرية العربية السورية مج ٣٢، (١٩٨٢)، ص ص. ٢٠٨.

(٣٢) المرجع نفسه.

(٣٣) المرجع نفسه.